ثنائية اللّفظ والمعنى في كتاب الصّناعتين[1] لأبي هلال العسكري (310هـ/ 395هـ)[2]

أ/حمزة دحماني

الملخص:

هذه الدراسة مساهمة متواضعة هدفها نفض الغبار عن قضية اللفظ والمعنى في تراث" أبي هلال العسكري "من خلال" كتاب الصناعتين"، وقد حاولت جهد الطاقة الوقوف على مفهومها كما وقرت في تصور اللغويين، ليتم إضاءتها من خلال نصوص المصادر التي تناولت هذه القضية لكن من زوايا مختلفة، متحريا الترتيب الزمني والتنويع المكاني في التعامل مع النصوص التي عالجت هذه القضية قدر المستطاع.

لقد أردنا في هذا البحث أن ندرس أحد أهم رجالات البلاغة العربية، الذي يعتمد على كثرة الأمثلة والإقلال من التعاريف، وهو يمثل هذا المنهج أحسن تمثيل، وكل المؤرخين يذكرون هذا له، هو الشيخ أبو هلال العسكري؛ في كتابه المشهور به: "كتاب الصناعتين"؛ وهو كتاب مزج فيه البلاغة بالنقد، لذلك وجدنا حتى المعنيين بأبحاث النقد يرجعون إليه، ونحن نقتصر على مصطلحي "اللفظ والمعنى" في هذه المقالة.

وإنّ تخصيص كتاب الصناعتين بالذات لا لشيء إلا أنه الكتاب الوحيد المتفرد بآراء أبي هلال البلاغية مما طبع من مؤلفاته على كثرتها وتنوعها. ويمكن ترتيب عناصر هذا العرض على الشكل التالي:

- تمهيد.
- اللفظ والمعنى في اللغة.
- اللفظ والمعنى في الاصطلاح.
- اللفظ والمعنى عند أبي الهلال العسكري.
- خاتمة خاصة بالبحث.

تمهيد:

تعد العناية بالدّلالة أو المعنى من أقدم الاهتمامات الفكريّة للإنسان؛ فقد شغل هذا الموضوع أذهان الفلاسفة والمناطقة واللّغويّين والنّحاة، وكذا الأدباء والأنتروبولوجيّين وغيرهم من فئات المجتمع على اختلاف تخصّصاتهم العلمية، وذلك لأهميّته فهو يمثّل عصب البحث وقوامه في كلّ دراسة.

والدّلالة هي تلك الرابطة الخفية التي تجمع بين الائتلاف الصوتي وهو ما يعرف باللفظ وما يحمله هذا الائتلاف من معنى. فاللفظ"دال"والمعنى"مدلول"، والدلالة هي ذلك المدرج الذي ينصرف إليه بال الإنسان حين النطق والسماع[3].

ولو بحثنا في جذور الفكر وبداياته الأولى لوجدنا أن قضية "اللفظ والمعنى" متأصلة في تراث الإنسانية منذ الفكر الهندي والإغريقي، والفكر العربي الإسلامي قديما، مرورا بلاهوت العصور الوسطى وفكر النهضة وصولا إلى القرن العشرين، وهذا دليل على أهمية هذا البحث.

فقد تبادرت إلى أذهان الباحثين في علقة اللفظ بمعناه تساؤلات جمة حفزتهم على الاجتهاد لكشف كنه هذه العلاقة الجدلية[4]. فهل توجد فعلا علاقة تربط اللفظ بمعناه أم لا؟ وإن وجدت فما طبيعتها وما مداها في كتاب الصناعتين؟ أهي ذاتية موجبة بحيث إذا ذكر هذا الاسم أثار بالضرورة صورة المسمى في جميع أذهان الناس؟ أم أنها اصطلاحية اعتباطية لم تثر صورة المسمى إلا في أذهان المصطلحين والمتعارفين عليها وحدهم دون سواهم؟.

يعد القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة الذي انبثقت منه كل العلوم والمعارف الإسلامية، إذ هو الدافع الرئيسي لحفز الهمم وشحذ الأذهان للبحث والتحري والاستقصاء، فبفضله توسعت المدارك وتفجرت العلوم الهادفة إلى خدمته قصد استكشاف تشريعاته ومعانيه وأساليبه، فكان بحق النص المحوري في الثقافة العربية الإسلامية. [5]

فالمتأمل لأشكال الثقافة العربية الإسلامية يلاحظ أن العلوم الإسلامية جميعها لغوية وشرعية" على ما بينها من تفاوت واختلاف في التناول والأداء، وفي عرض الظواهر وتحليلها، وفي استعمال الأدوات والمصطلحات وضبطها وتحديدها، قد جعلت النص القرآني محط اهتمامها ومنطلقا لدراساتها". [6] فما من علم إلا وكان القرآن الكريم المحور الذي يتحرك حوله وبوحي منه، سعيا إلى فهم نصوصه والتعبير عن حقائقه، فالنحوي ينظر إلى القرآن من جهة ما تضمنه من قواعد النحو ومسائله وأصوله وفروعه وخلافاته، واللغوي ينظر إليه من جهة ما تضمنه من لغات العرب، والفقيه ينظر إليه من جهة ما تضمنه من أمور فقهية

كالطهارة والصلاة والزكاة وأحكامها، والبلاغي ينظر إليه من جهة ما تضمنه من أساليب بلاغية كالحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية والتورية والاستعارة.

وإذا كان القرآن الكريم هو النص المحوري في الثقافة العربية الإسلامية، فإن ثنائية اللفظ والمعنى تعد أبرز مبحث تنازعته علوم هذه الثقافة، والسبب في ذلك أن علاقة اللفظ بالمعنى تمتد إلى أعماق بعيدة تنتظم النشاطات البشرية في المجال اللغوي، من كلام وإبداع ونظم وغير ذلك...فكان لابد أن يوجد مصطلح يمثل جهة اللغة ويعبر عنها وهو (اللفظ)ومصطلح يعبر عن جهة المضامين وهو (المعنى). وإذا أردنا أن نتتبّع ظاهرة "اللفظ والمعني" فلابُدَّ لَنا أن نبدأ بمعنى الكلمتين « اللفظ والمعنى » في المعاجم العربية كأولّ خطوة للغوص في هذا الموضوع.

اللفظ والمعنى في اللغة:

اللفظ في اللغة "مصدر للفعل بمعنى الرمي، ويتناول ما لم يكن صوتا وحرفا، وما هو حرف واحد وأكثر، مهملا كان أو مستعملا، صادرا من الفم أولا، ثم خص في عرف اللغة بما صدر من الفم، من الصوت المعتمد على المخرج حرفا واحدا أو أكثر، مهملا أو مستعملا". [7] وفي لسان العرب: "لفظت الشيء من فمي ألفظه لفظا رميته. يقال أكلت الثمر ولفظت النواة أي رميتها"[8]. وفي القاموس المحيط": لفظ بالكلام نطق كتلفظ". [9]

أما المعنى لغة: فهو ما يقصد بشيء، ولا يطلقون المعنى على شيء إلا إذا كان مقصودا، وأما إذا فهم الشيء على سبيل التبعية فيسمى معنى بالعرض لا بالذات. [10] ومعنى كل كلام، ومَعْنَاتُهُ ومَعْنِيَّتُهُ، مَقْصِدُهُ[11] فالمفهوم اللغوي للفظ أنه ما يتلفظ به الإنسان

من الكلام، والمعنى أنه المقصود باللفظ، فالقصد شرط في اللفظ والمعنى، إذ لو لم يعت القصد لا يسمى الملفوظ كلاما.

اللفظ والمعنى في الاصطلاح:

اللفظ في الاصطلاح هو "ما يتلفظ به الإنسان أو في حكمه، مهملا كان، أو مستعملا"[12] وهو عبارة عن صورة المعنى الأول الدال على المعنى الثاني على ما صرح به الشريف الجرجاني حيث قال: "إذا وضعوا اللفظ بما يدل على تفخيمه لم يريدوا اللفظ المنطوق، ولكن معنى اللفظ الذي دل به على المعنى الثاني". [13]

أما المعاني في الاصطلاح فهي الصورة الذهنية إذ وقع بإزائها اللفظ من حيث إنها تقصد منه، وذلك ما يكون بالوضع، فإن عبر عنها بلفظ مفرد سمي معنى مفردا، وإن عبر عنها بلفظ مركب سمي معنى مركبا. (14)

والمعاني هي "الصورة الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث إنها تقصد باللفظ سميت معنى، ومن حيث إنها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما"(15) والمعنى هو "المفهوم من ظاهر اللفظ الذي نصل إليه بغير واسطة ". (16)

يتضح إذن من خلال هذه التعريفات، أن طبيعة اللفظ والمعنى هو التلازم، فلا وجود للفظ بدون معنى، ولا وجود لمعنى بدون لفظ. فإذا كان المعنى صورة ذهنية فقد وضع بإزائه لفظ هو القصد من تلك الصورة أو هويتها.

وقد أدرك العلماء على نحو جيد قوة الترابط بين اللفظ والمعنى، وأدركوا قيمة المعنى في التعبير، ومكانة الألفاظ حين تنضم إلى بعضها، فالمعنى لا يقوم بغير لفظ، كما لا تقوم الروح بغير جسد، فهما متلازمان تلازم الروح والجسد في الأشخاص يقول العتابي" الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرا، أو أخرت منها مقدما، أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، ولتحولت الخلقة وتغيرت الحلية". (17)

ولأهمية هذه الثنائية في الثقافة العربية الإسلامية، فقد كانت محط اهتمام الباحثين والدارسين على اختلاف بيئاتهم ومعارفهم، فتعددت حولها النظريات وتضاربت حولها الآراء، واختلفت المناهج والمصطلحات من حقل لآخر فيا ترى ما معنى اللفظ والمعنى في كتاب الصناعتين؟

اللفظ والمعنى عند أبي الهلال العسكري:

ظهر أبو هلال العسكري في القرن الرابع الهجري، ويعتبر كتابه الصناعتين أساسا قويا للبلاغة في نهاية هذا القرن، وعلى الرغم من تصريح البيان والتبيين للجاحظ، إلا أن ذلك لا يغمط حقه ولا يخفي مجهوده وجديده فيما أضافه لبناء سرح البلاغة ولسنا هنا نناقش قضية السبق إلى القضايا البلاغية وإنما لحصر ما ورد منها في كتاب الصناعتين باعتباره كما صرح النقاد والمؤرخون جمع كل ما انتهت إليه البلاغة إلى عصره، فيكون لدينا فكرة حول ما وصلت إليه البلاغة حتى ذلك القرن.

وتعد قضية "اللفظ والمعنى" من أهم المسائل التي دارت في تلك العهود، فكان من العلماء أنصار اللفظ، وكان منهم أنصار المعنى، وقد اختلف النقاد ومؤرخو البلاغة في تصنيف أبي هلال من أي فريق هو؟.

فالطائفة الكبيرة منهم جعلته من أنصار اللفظ وجعلت "مذهبه في تفضيله للفظ على المعنى على مثال ما فعل الجاحظ، وما يرى أصحاب البديع"[18]، وحجتهم في ذلك مقولته التي تابع فيها الجاحظ: "وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت"[19]. وأيضا كثرة ما كان يعيد عبارته: "إن مدار البلاغة على تحسين اللفظ" مدللا لها، فقد ذكرها ثلاث مرات في كتابه:

الأولى في فصل تمييز الكلام: "ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ:. . . ودليل آخر، إن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا، وسلسا سهلا، ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر... إذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا وفاترا، والفاتر شر من البارد، كان مستهجنا ملفوظا ومذموما مردودا"[20].

الثانية في فصل الإطناب: "... وهذا يدل أن أعظم مدار البلاغة على تحسين اللفظ"[21].

والثالثة في فصل التتميم: "... وهذا دليل على صحة ما قلنا، من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة"[22].

وطائفة أخرى جعلته "أولى عنايته لكليهما، لإيمانه بوجود علاقة بينهما، وهي علاقة ثابتة كعلاقة الروح بالأبدان الحية، لذلك تسير الألفاظ والمعاني عنده جنبا إلى جنب كإقامة الروح في الجسد، وهي نظرة ثاقبة في اتجاه لغوي جديد يربط بين الفكر واللغة". [23] ودليل هذه الطائفة مقولة أخرى أوردها أبو هلال في فصل التنبيه على خطأ المعاني وصوابها: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها، ويعبر عنها، ويحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى، ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة"[24].

ونص آخر أيضا استشهد به أبو هلال للعتابي في باب البيان عن حسن النظم وجودة الرصف: "وقال العتابي: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها

مؤخرا، أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية. وقد أحسن في هذا التمثيل"[25].

وأيضا بعض العبارات التي كانت تقوي هاته الجهة مثل قوله: "وتوخي صواب المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ"[26].

وطائفة ثالثة نظرت لكل هذه الأقوال جميعها نظرة جزئية مقتطعة عن سياقها، فنسبته إلى الاضطراب والتخبط في مسألة اللفظ والمعنى وأيهما المعول عليه في جودة الكلام وجعلت بين قوليه تناقضا غير مفهوم[27].

وحتى نستطيع نحن أن نسلم لأحدها علينا أن نعرف أولا ما مدى فهم أبي هلال لارتباط اللفظ بالمعنى، وما موضع أحدهما من الآخر عنده؟ بهذا فقط نستطيع أن نضع أيدينا على علة جودة الكلام عند أبي هلال، وبه نستطيع أن نفهم مقولاته ضمن سياقاتها التي سيقت فيها.

عاش أبو هلال في فترة شاع فيها وقبلها تقسيم الكلام إلى ألفاظ ومعان، ولم يكن أبو هلال ومذهبه مذهب صناع الكلام ليغوص في متاهات وفلسفات حقيقة اللفظ مع المعنى، فهو الأديب الشاعر الذي كان شغله الشاغل من أول كتابه أن يحقق أهدافه السامية التي أسس وبنى لأجلها هذا الكتاب، هو الناقد الذواقة الذي خبر النصوص وتذوقها بحسه المرهف، فامتازت "دراسته بعمق النظرة وسعة الأفق ورقي الذوق الأدبي"[28] جمع كل ما وصلت إليه البلاغة حتى عصره، وأضاف إليها ما سمحت به قريحته من شروح مبسطة وتمثيلات غزيرة و"اجتهادات طريفة تدل على دقة البصر بالشعر والخبرة بأسرار التركيب الفني"[29] - ليقدمها لطالب هذا العلم جاهزة واضحة جلية فيفيد منها الطالب إفادات جمة ويفهمها بكل يسر وسهولة لأنه من عصر مؤلفها فهمه للفظ والمعنى هو الفهم السائد في ذلك العصر.

لم يكن أبو هلال يفهم حقيقة اللفظ مع المعنى كما فهمها من بعده الشيخ عبد القاهر (ت 471هـ) والذي شكل هذا الفهم عنده شطر نظريته البلاغية – نظرية النظم- والمتأمل لكتاب "دلائل الإعجاز" يلاحظ بأن صاحبه يرى: أن الناظم إذا أراد أن ينظم كلاما في أي غرض يبدأ فيرتب المعاني في نفسه أولا ويبذل جهدا في ترتيبها، ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق، فالناظم يبذل فكرا في ترتيب المعاني في النفس وتنسيق دلالتها، ولا يحتاج إلى أن يستأنف فكرا جديدا في ترتيب الألفاظ وتوالي نطقها[30].

إلا أن أبا هلال كانت نظرته تجرد اللفظ عن معناها، وتفصل ألفاظ الجملة عن معناه نظرة ازدواجية تجعل ألفاظ الجملة المسبوكة في جانب، وتجعل المعني الناتج عنها في جانب

آخر؛ ولما كان الأمر عنده كذلك كان على أحدهما أن تكون له المزية الزائدة على الآخر في جودة الكلام، فكان هو اللفظ الذي صال وجال يستدل لفضله ونحن نقول المزية الزائدة لأن أبا هلال لا يرى للفظ المزية الكاملة المنقطعة، فهو أيضا يشيد بالمعنى وبأهميته. إن أبا هلال في تفريقه يصنف اللفظ في الدرجة الأولى وبعده المعنى في الدرجة الثانية لكن مع أهمية كل منهما، ألسنا نجده يقول "... لأن المدار بعد على إصابة المعنى" [31]. واشترط في اللفظ شروط تحسين سبق وأن ذكرناها، واشترط في المعنى أن يكون صوابا وسبق أن أوضحنا قصده بالصواب، وجعل شرط اللفظ ملازما لشرط المعنى حتى تتحقق الجودة، فإن انتفى أحدهما انتفت جودة الكلام.

وذكر أبو هلال مكان اللفظ من المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه، ذكرنا اثنين من قبل وهو ما احتج به الطائفة الثانية: الأول له، والثاني للعتابي، أما الثالث فقوله في فصل البيان عن حسن النظم: ". . وإذا كان المعنى وسطا ورصف الكلام جيدا كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا في المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا"[32]. هذا القول الثالث بين الفصل بين اللفظ والمعنى، فرصف الكلام الذي يتحدث عنه هو ترتيب الألفاظ، فقد جعل المعنى من جهة وترتيب الألفاظ من جهة أخرى وشبههما بالعقد.

فالمعنى السابق كالحكمة مثلا إن لم ترتب الألفاظ مجردة من المعنى – ترتيبا سليما سقط الكلام وإن جل المعنى: كحبات عقد ثمينة سيء ترتيبها.

والمعنى الوسط الذي هو أدنى درجات المعنى الصائب عنده إن رتبت ألفاظه – المجردة – ترتيبا حسنا كان الكلام أحسن موقعا وأطيب مستمعا مثل حبات عقد طبيعية حسن ترتيبها.

أما النصان الأول والثاني، فلو تأملنا هما جيدا لاتضح الفارق بينهما جليا، فمن تشبيه أبي هلال للمعاني بالأبدان وللألفاظ بالكسوة يتأكد لنا رأيه وفهمه للفصل الذي لا ينفك نحسه يضعه بين اللفظ والمعنى عبر كامل أجزاء الكتاب.

وإن كان استشهاده بقول العتابي يوهم بغير ذلك الفهم إذا وقعت أبصارنا على جملة "الألفاظ أجساد والمعاني أرواح"، فإن أبا هلال ما فهم هذه الجملة إلا كما فهم تشبيههما بالأبدان والكسوة، نقول ذلك لأنه لم يستشهد بقول العتابي في معرض الكلام عن اللفظ والمعنى كما فعل في قوله السابق، بل كتب مقولة العتابي وهو يقصد الاستشهاد بقوله "فإذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى"، لأن أبا هلال كان

يتحدث عن حسن الرصف وسوئه، وعرف سوء الرصف أنه "تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوهها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها"[33]، وبعد هذا التعريف مباشرة جاء بقول العتابي الآنف الذكر، مما يدل دلالة قاطعة على قصده ذاك.

لقد أشاد أبو هلال كثيرا بتحسين اللفظ وتخيره حتى يحسن الكلام لكنه دائما كان يقيده بإصابة المعنى، ولم يخل نص من نصوصه يذكر فيه دور اللفظ إلا عطف عليه دور المعنى، كقوله: "الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخير لفظه وإصابة معناه[34].. " فالمعنى إن حاد عن الصواب سقط الكلام ولو تخير له أجاود الألفاظ وأحلاها، وهذا بين حتى في عبارته: "وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا" التي تظهر فيها صنعة المعنى عن اللفظ، فإن هاته العبارة نفسها تصرح أن المعنى إن لم يكن صوابا فليس يغني اللفظ كل ما جلله به أبو هلال وحلاه من أوصاف الحسن والجمال. يقول أبو هلال في هذا المعنى: "ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهرا، والألفاظ إذا اجترت قسرا، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد". [35]

وكما خصص أبو هلال الفصل الأول من الباب الثاني لتمييز الألفاظ وصرح في آخره أن تمييز الألفاظ شديد، خصص الفصل الثاني منه في التنبيه على خطأ المعاني وصوابها وأغزر فيه من التمثيلات حتى يشتفي طالب الصنعة – صنعة الكلام –

وفي الباب الثالث الفصل الأول في كيفية نظم الكلام تطرق أبو هلال لقضية مهمة جدا في ميدان النقد والبلاغة تجعلنا نحس جيدا ذلك الترتيب الذي يتبناه: الألفاظ فالمعاني؛ والقضية هي التناسب في المعاني.

وأبو هلال حين يعرض لها ويوجه اهتمامه إلى التناسب في المعاني لم يكن هذا تجاهلا لتناسب الألفاظ وتلاؤمها فمبدؤه أن يحرص الشاعر على أن يكون بين كلمات قصيدته توافق وانسجام من جهة البناء الصوتي للشعر من حيث الأصوات المفردة والكلمات مفردة ومركبة والإيقاعات في الأوزان والقوافي، وهو مبدأ الجاحظ قبله- لم يتجاهله أبو هلال، وإنما قام على افتراض أن التناغم الصوتي متحقق بالفعل، ومع هذا لا يزال البيت(أو البيتان) يعاني نوعا من الاضطراب. لانعدام الاستواء في المعنى، فقدم نماذج من أبيات وقطع تفتقد الالتئام والتكامل في المعنى وهذه النماذج ترجع لشعراء في عصور مختلفة وفي مستويات من المقدرة عالية، ومع هذا يحدث أن تغفل عن مراجعة شعرها وصقله بما يحقق له هذا المستوى الأساسي المطلوب في الشعر[36].

ومجمل القول أن أبا هلال أديب كبير، عرف بكتاباته الأدبية المفيدة الدالة على غزارة علمه، وله مجموعة شعرية أكثرها مبثوث في كتبه، نشأ في بيت علم وفقه، وأبرز شيوخه الذين أخذ عنهم أبو أحمد العسكري، وقد عاش حياة فقر وإقتار يعبر عن ذلك بعض أبيات شعره.

واشتهر اسم أبي هلال العسكري في الأدب خصوصا بكتاب الصناعتين الذي نوه به كثير ممن خلفوه حتى عصرنا الحاضر من النقاد والمؤرخين والذي جعل أبا هلال من أعمدة البلاغيين المتقدمين. وكتاب الصناعتين كان ضرورة لابد منها لذلك القرن؛ إذ كان نتيجة أسباب عديدة دفعت مؤلفه إلى أن يدونه ويلتزم فيه بمنهج يخصه رأى فيه اليسر وبساطة التعلم.

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة في أجواء كتاب الصناعتين، خرجنا من هذا البحث بعدة نتائج، وقد حصرتها في النقاط التالية:

- قضية اللفظ والمعنى من أهم القضايا التي دار حولها النقد. وهي ترجع في الأساس إلى النظر في الشعر ما بين لفظه ومعناه أيهما تكمن فيه الشاعرية أو المقدرة الفنية أتتصب العناية على المعنى المخبوء أو الظاهر في الشعر أم تنصب على الشكل والتفرّد في الصياغة ولاشك أن الشعر أو الأدب هو هذا الثنائي (اللفظ والمعنى) مع الأخذ في الاعتبار أن الفصل بينهما غير متحقق عند التدقيق ولا يؤدي إلى بيان الروعة الفنية في الأدب.

- كان أبو هلال من العلماء الذين يرون هذا الفصل، ويرون تقديم اللفظ على المعنى في جودة الكلام لكن دون أن يغمط مزية المعنى؛ إذ كانت نظرته للجملة(فضلا عن اللفظ) نظرة تفصل بين معناها وبين ألفاظها المرتبة، ويرى أن بذل الجهد يكون- عند التعبير- في ترتيب الألفاظ دون التفات إلى المعاني وترتيبها في النفس الذي يسبق ترتيب الألفاظ كما يقرر عبد القاهر، فالمعاني عند أبي هلال خامة ليس فيها أي ترتيب، فهي حاضرة في النفس وتأتي بعدها مرحلة الاجتهاد في التعبير عنها بألفاظ مرتبة ترتيبا صحيحا خاصا بها وهنا تنصب كل فنون البلاغة وتراعى بهذا المنظور عند أبي هلال.

- اللفظ والمعنى وجهان لعملة واحدة؛ الألفاظ أصوات منطوقة جهرا، والأفكار قد تكون ألفاظا وأصواتا خافتة ينطقها العقل ويتعامل معها بسرية تامة، فإذا ما أراد أن يخرجها من إطاره نطق بها ألفاظا للآخرين.

- ونعتقد جازمين أن هذا العمل ما هو إلا محاولة جادة نبتغي فيها المنفعة العلمية العامة، راجين من المولى عز وجل أن يتقبله وينفع به، فإن كان ما قدمناه صوابا فهو من الله وإن كان عكس ذلك فهو من أنفسنا، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الهوامش:

(1) كتاب الصناعتين كتاب في الأدب العربي، وخاصة في علم البلاغة؛ إذ هو عبارة عن خلاصة ما توصل إليه سابقو العسكري ممن عالجوا موضوعه كابن سلام في طبقات الشعراء والجاحظ في البيان والتبيين، وابن قتيبة في نقد الشعر، وابن المعتز في البديع، وقدامة في نقد الشعر، والآمدي في الموازنة، والجرجاني في الوساطة.

ويتألف كتاب الصناعتين من مقدمة نوه المصنف فيها بمعرفة علم البلاغة وأنه ضروري لفهم إعجاز القرآن. . . وكذلك يتكون من عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا، تتناول الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغة واصطلاحا، إلى تمييز جيد الكلام من رديئه، ومعرفة صنعته وحسن الأخذ وقبحه، إلى ذكر الإيجاز والإطناب، والتشبيه حده، وما يستحسن منه وما يستقبح، وذكر السجع والازدواج، والقول في البديع ووجوهه وحصر أبوابه وفنونه. . . وقد بلغت فنون البديع عنده خمسة وثلاثين فنا استغرقت من كتابه خمسة وثلاثين فصلا، طبع الكتاب مرات، منها طبعة الأستانة سنة 1320هـ بعناية السيد محمد الأمين الخانكي أما نسخة المخطوط فيندر وجودها في مكتبات العالم، منها مخطوط دار الكتب المصرية وقد كتبت سنة 1091هـ بخط فضل الله الطيب

(2) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري ولد ونشأ بمدينة عسكر مكرم وإليها نسب، وهي مدينة من مدن الأهواز شرق العراق، وقد أغفلت جميع المصادر تاريخ ولادة أبي هلال، غير أن بعض الباحثين المعاصرين استنتجوا أنه ولد سنة 310هـ على وجه التقريب، وبعد أن تقدمت به السن واستولى الضعف عليه توفي –رحمه الله- واختلف في سنة الوفاة فمن المصادر من يرى بأنه توفي سنة 395هـ ومنهم من يرى بأنه توفى في حدود الأربعمائة تاركا آثارا أدبية جمة وفيما يلي نورد بعض مؤلفات أبي هلال لأنها كثيرة ولا يسعنا ذكرها كاملة:

- كتاب الأوائل - كتاب التبصرة - التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم. - كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأشياء. - جمهرة الأمثال. - الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه. - الحماسة العسكرية. - الدينار والدرهم. - ديوان المعاني. - ديوان العسكري. - ذم الكبر. - كتاب صنعة الكلام- كتاب الصناعتين.

(3) البنية اللغوية في اللهجة الباهلية: دراسة في المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، عبد القاهر عبد الجليل، دار صفاء، الأردن، ط: 1 /1417هـ- 1997م، ص: 97.

(4) الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، مكتبة دار الشرق، لبنان، ط: 1، دت، ص: 366.

(5) مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، أبو زيد نصر حامد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط: 4 /1998م، ص: 9.

(6) دراسات الطبري للمعنى من خلال تفسيره، محمد المالكي، منشورات وزارة الأوقاف مطبعة فضالة، المغرب، دط، 1917هـ/1996م، ص: 21.

(7) الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي أبو البقاء أيوب موسى الحسيني، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1/1412هـ/1992م، ص: 795.

[8] لسان العرب- ابن منظور- دار صادر بيروت – دط، 1374هـ/1955م، (مادة لفظ).

[9] القاموس المحيط، الفيروز آبادي محمد بن يعقوب، مؤسسة الرسالة، دار الريان للتراث، بيروت لبنان ط: 1987/1407/2، (مادة لفظ).

[10] نفسه، ص: 842.

[11] لسان العرب(مادة عنا).

[12] التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة جديدة/1985م، ص: 203.

[13] الكليات، ص: 795

[14] كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي محمد علي بن علي الفاروقي التهانوي، دار صادر، بيروت، دط، دت، 1084/3.

[15] التعريفات، ص: 235- 236.

[16] الكليات، ص: 842.

[17] كتاب الصناعتين، أبو الهلال العسكري، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1989/2 م، ص: 179.

[18] تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، محمد زغلول سلام، منشأ المعارف، الإسكندرية، ط: 3، دت، ص: 387.

[19] كتاب الصناعتين، ص: 63.

[20] نفسه، ص: 164.

[21] نفسه، ص: 201.

[22] كتاب الصناعتين، ص: 406.

[23] نظرية النظم، وليد محمد مراد، دار الفكر، دمشق، سوريا ط: 1983/1م، ص: 30.

[24] كتاب الصناعتين، ص: 70.

[25] نفسه، ص: 167.

[26] نفسه، ص: 179.

[27] شعر أبي هلال العسكري، محسن عياض، منشورات عويدات، بيروت، ط: 1/ 1975م، ص: 34.

[28] نظرية النظم، ص: 31

[29] أصول النظرية البلاغية، محمد حسن عبد الله، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 2/ 1996م، ص: 78.

[30] دلائل الإعجاز في علم المعاني- عبد القاهر الجرجاني- شكله وشرح غامضه وخرج شواهده الدكتور ياسين الأيوبي –المكتبة العصرية- صيدا- بيروت- ط: 2003، ص: 30.

[31] كتاب الصناعتين، ص: 70.

[32] نفسه، ص: 167.

[33] نفسه، ص: 167.

[34] نفسه، ص: 61.

(35) نفسه، ص: 66.

(36) أصول النظرية البلاغية، ص: 70.

المصادر والمراجع المعتمدة:

- القرآن الكريم رواية حفص لقراءة عاصم (قرص مضغوط).

1- أصول النظرية البلاغية، محمد حسن عبد الله، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 2/ 1996م.

2- البنية اللغوية في اللهجة الباهلية: دراسة في المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، عبد القاهر عبد الجليل، دار صفاء، ا لأردن، ط: 1 /1417هـ- 1997م.

3- تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، محمد زغلول سلام، منشأ المعارف، الإسكندرية، ط: 3، دت، ص: 387.

4- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، طبعة جديدة/1985م.

5- دراسات الطبري للمعنى من خلال تفسيره، محمد المالكي، منشورات وزارة الأوقاف مطبعة فضالة، المغرب، دط، 1917هـ/1996م.

6- دلائل الإعجاز في علم المعاني- عبد القاهر الجرجاني- شكله وشرح غامضه وخرج شواهده الدكتور ياسين الأيوبي –المكتبة العصرية- صيدا- بيروت- ط: 2003.

7- شعر أبي هلال العسكري، محسن عياض، منشورات عويدات، بيروت، ط: 1/ 1975م.

8- القاموس المحيط، الفيروز آبادي محمد بن يعقوب، مؤسسة الرسالة، دار الريان للتراث، بيروت لبنان ط: 1407/2 -1987.

9- كتاب الصناعتين، أبو الهلال العسكري، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1989/2 م.

10- كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي محمد علي بن علي الفاروقي التهانوي، دار صادر، بيروت، دط، دت.

11- الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الكفوي أبو البقاء أيوب موسى الحسيني، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1412/1هـ- 1992م.

12- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر بيروت، دط، 1374هـ- 1955م.

13- مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، أبو زيد نصر حامد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط: 1998/4م.

14- نظرية النظم، وليد محمد مراد، دار الفكر، دمشق، سوريا ط: 1983/1م.

15- الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، مكتبة دار الشرق، لبنان، ط: 1، دت.